افتتاحية العدد ..

الأفق المنهجي لإنهاء التنكُّر المزدوج بين علوم الطبيعة وعلوم الشريعة

د. عبد الرزاق بلعقروز - رئيس التحرير

«وأمَّا المنطقيات؛ فلا يتعلَّق شيءٌ منها بالدِّين نفيًا وإثباتًا؛ بل هو النَّظر في طرق الأدلَّة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحدِّ الصَّحيح وكيفية ترتيبه... وأمَّا الإلهيات؛ ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق؛ ولذلك: كثُر الخِلاف بينهم فيها». [أبو حامد الغزالي، «المنقذ من الضّلال»، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، بيروت، (٢٠٠٣م)، (ص/ ٥٤٤- ٥٤٦)].

لقد رسم الاتصال المعرفي في بدء انوجاد الثقافة اليونانية ضمن الثَّقافة الإسلامية، إحداثيات فكرية ومنهجية مخصوصة، وقد كان الباعث على التواصل مع الثقافة اليونانية هو تمثُّل الجوانب الإيجابية في الفكر الإنساني، وتأكيد الأمر الإلهي بواجب القراءة كشفًا عن العلوم التي تعبر عن القوانين التي بثتها الإرادة الإلهية في الوجود. وعليه، فإن استيعاب الأنساق المعرفية والمناهج العلمية وصف ملازم لروح العلم ومكوناته في التراث العلمي عند المسلمين، وليس هذا المنهج مجرّد استيعاب استحواذي لما وصل إليه الفكر الإنساني، بل هو تعاطٍ تفاعلي إيجابي يتجاوز ثنائية الصَّلابة الرافضة والسيولة المقلّدة؛ ويَسْكُن ضمن الجهد المنهجي التَّحليلي التَّفكيكي للعلوم بخاصة في نماذجها اليونانية، هذا الجهد المنهجي يظهر لنا في متونه تَلَمُّحٌ معرفي عميق؛ عنوانه إقامة الفُرقان على طريقة أبي حامد الغزالي كما جاء في النص المقتبس أعلاه، بين العلوم الصحيحة أو العلوم الدقيقة، وبين العلوم التي تعكس تأمُّلات العقل الإنساني في تفسيره للوجود، أو بلغة أخرى، تشكيل رؤية كونية فلسفية عرفت في التاريخ المعرفي بعلم الإلهيات؛ هذا الوعي المنهجي بالفصل بين الرؤية الكونية وبين منظومة العلوم بخاصة في سياقها اليوناني فتح للعقل المسلم دروبًا مكّنته من الأخذ بهذه العلوم وإيجاد مكان لها بما لا يتصادم مع الرؤية الكونية الإيمانية؛ وهذا ما فتح فضاءً جديدًا في تاريخ المعرفة الإنسانية، ملمحه الجوهري وحدة المعرفة الإنسانية، التي تتأسَّسُ بدورها على التَّوحيد كرؤية كلية للوجود.

ورُبَّ سؤال يندلق أمامنا هنا، يطلب إيضاحًا منهجيًا عن إسهام جزء من الفلسفة اليونانية في تشويش منظومة العلوم وتَشَكُّل الثنائيات المتقابلة، مثل ثنائية الحكمة والشريعة، أو العقل والنّقل، ونمو الفِرق التي تكافح مع مذهب ضد مذهب آخر. لا بد من الوعي بأن الفلسفة عندما نُقلت إلى الثقافة الإسلامية، وانفتح العقل المسلم عليها مُسْتَوْعِبًا وليس مُسْتَوْعَبًا؛ كانت

مزدوجة بكتب التعاليم التي حوت العلوم الرياضية والطبيعية والمنطقية، فسرى الاعتقاد أن الإحكام والدقة التي تتجلى في هذه العلوم تتوافر في المباحث الفلسفية الخالصة وفي طليعتها مبحث الإلهيات، فاعتبروا أن القول العلمي الدَّقيق يماثل القول الفلسفي في دقته؛ فسحبوا الدقة والإحكام من دائرة كتب التعاليم إلى دائرة التأملات الفلسفية حول الوجود؛ وهنا تشكل الاختلال في العلاقة بين رؤية العالم الإيمانية والتأملات الفلسفية حول الوجود.

لذا انتهت فئة من العلماء لأجل التصدي لهذا الاختلال، ولأجل الكشف عن حدود علم الإلهيات على أن يحيط بذات الله أو يقدّم لطالبه ما يمنعه من الاعتقادات الفاسدة. ويعد الغزالي في طليعة من استوقف هذه المنهجية في تَلَمُّح حدود مباحث الإلهيات اليونانية، وإمكان الأخذ بالعلوم الصحيحة أو الدقيقة إلى دائرة الفكر الإسلامي، لكن ضمن رؤية إيمانية توحيدية تعطي لهذه العلوم دور الأداة في تلمح عجائب الخلق الإلهي واستكشافها، وتوظيفها بما يعود بالنفع على الإنسان، مع لفت النّظر إلى أن من يطالع هذا الإحكام في مناهج هذه العلوم، ينصرف فكره إلى قبول آرائها في كل شيء. وهنا اللفتة الذكية من الغزالي، الذي سلك منهج تقريب المنقول بما يدخل ضمن علوم الوسائل لا علوم الغايات، والأكثر من هذا، أن الفلاسفة بالمفهوم القديم للفلسفة قد أخَلُّوا بشرائط البرهان التي وضعوها في المنطق؛ عندما كانوا بصدد الكلام في قطاع الإلهيات، وأنهم لو استقاموا على موازينها لكانت الثمرة هي التوحيد ونفي التعدد والتعطيل. من هنا كان المنطق كآلة للعلوم قد أخذ منزلة منهجية ليس فقط ضمن دائرة الفكر الفلسفي، وإنَّما ضمن دوائر المنهجية الأصولية، وضمن المعرفة الفقهية. وعليه، فنحن أمام تشغيل للآلة المنطقية والثقة في استلزاماتها وأقيستها؛ مع فارق بين من يرى منهجية تتفقه بموجبها الآلة المنطقية، ومن يرى منهجية يتمنطق بموجبها الفقه. ولم يكن المنطق مستخدمًا في دوائر المعرفة الفقهية فحسب، بل جرى الأخذ بقوانينه البرهانية إلى دائرة علم الكلام، الذي يُعَدُّ من أقوى الدَّوائر التي شغلت العدة المنطقية، بالإضافة إلى دائرة اللغة ودائرة الفقه؛ ذلك أن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية قد انخرط ضمن الدليل العقلي في صورته المنطقية، والتَّفتيش عن أوجه التناقض الموجودة في مباحث الإلهيات بخاصة تلك التي تتصادم مع الاعتقادات العامة والأساسية في الإسلام.

يتضح ممَّا تقدّم أنَّ سبب الإنكار الفلسفي للإله أو تصور الصفات معطلة من قبل الفلاسفة، سببها الرئيس هو الإخلال بقوانين

الآلة البرهانية التي كانت ضمن تلك الفترة تعبر عن منهجية علمية تحظى بالقبول، والتَّشغيل في مباحث المعرفة الإسلامية.

إنَّ العلوم الدقيقة كما كانت محط تأمل فكري وتشغيل منهجي وسائلي، فهي اليوم أيضًا تحت هيمنة النموذج المعرفي العلماني، الذي طابق بين النموذج المعرفي العلماني، وبين العلوم الدقيقة بلغة مقالة الفلاسفة. وعليه، فهذه العلوم بلغة أبي حامد الغزالي لا تتعرض إلى قضايا الدين لا بالنفي ولا بالإثبات، وإنما الذي ينفي أو يثبت القضايا الدينية هي الرؤية الكامنة خلف هذه العلوم، رؤية تنغرس في النموذج الاختزالي والتبسيطي، الذي أضحى اليوم في أزمة معرفية جلية، تعبّر عنها نظرية الأوتار الفائقة، التي خلاصتها أن الفيزياء المعاصرة ليست بخير. وهذا ليس مدعاة إلى أن نلقي الأحكام وننظر بارتياب إلى أزمات العلوم المعاصرة، وإنَّما عاجل المطلوب هو القيام بالجهد المنهجي التَّحليلي والتَّفكيكي، الذي يعيد موضعة هذه العلوم ضمن نسق الرؤية الإيمانية التوحيدية، وهو نسق لا يلغي العلوم الدقيقة بحجة الأسس الدينية، بل يكامل بينهما وينزل العلم منزلته التي تليق بمقامه، بأن يترك سؤال الغايات للرؤية الدينية الإيمانية، ويبحث ضمن دائرة الوسائل كي يستكشف منظومة السنن والقوانين المبثوثة في الوجود الطبيعي والوجود الإنساني. وبهذا نكون قد فتحنا الطريق نحو درب آخر يكامل بين منظومة العلوم الطبيعية وبين منظومة علوم الوحي درءًا للصيغة المتعارضة بينهما، التي جاء بها الغرب إلى العالم.

لأجل هذا: توَّزعت مواد هذا العدد الرابع من المجلة ضمن دائرة الملف المخصوص، وضمن الأبحاث الحرة أو التي هي خارج الملف، فالملف كما هو معلوم ناقَشَتْ فيه مقالات رصينة موضوع العلوم الدقيقة وعلوم الوحي، وثمة مقالات أخرى خارج الملف توزعت في موضوعاتها وإشكالاتها أيضًا: فجاءت مقالة د. محمد محمد أمزيان، «**الخطاب الحداثي العربي وإشكالية الثابت والمتحول**»، مُسَلَّطة الضوء على مسألة ثنائية الثَّابت والمتحول، وقد أبصر الباحث في تعددية المرجعيات وتعارضاتها افتقادًا إلى وحدة مرجعية قويمة، وملفتًا النَّظر إلى تلك المراجعات التي باتت تطبع الكتابات النَّقدية، بخاصة ما تعلّق منها بقيمة القيم الذاتية للمجتمع، الذي لن يجني الإعراض عنها إلَّا الانسداد.

أمَّا البحث الموسوم بـ «**الدّراسات الحداثية للقرآن الكريم من دعاوى التّجديد إلى**

إثارة الشّبهات» للأستاذ سعيد عبيدي، فقد ناقش جملة من المواقف التي تصف نفسها بالتجديد في قراءة النص القرآني بأدوات معرفية مستحدثة؛ وذلك لدى كل من «حسن حنفي، وطيب تيزيني، ومحمد شحرور»، وهي برأي الباحث ليست في الحق تجديدية، وإنَّما لا تتعدى إثارة الشبهات الموجودة في التاريخ، وعليه فهي تفتقر للإبداع والتّجديد.

أما بحث الدكتور بنيونس السراجي، الموسوم بـ «**التكامل التربوي لبيئات التعلم والتنشئة الاجتماعية، وأثره الإيجابي في الإصلاح الحضاري**»، فقد بحث في بناء منهج للتكامل التربوي لمؤسسات التنشئة الاجتماعية أساسه التكامل والشمول والترابط والمرونة، ويسعى إلى تحقيق التنمية الإنسانية من خلال مداخل التربية والقيم وحقوق الإنسان والاختيار...، وينهل من معين التربية الإسلامية الشاملة، التي تتصف بمبادئ كونية أساسها: الربانية، والعالمية، والتكامل، والتوازن، والتدرج...؛ لأجل بناء نموذج تنموي ناجح، يحقق أهداف التربية وغاياتها المنشودة، ويساهم في اللحاق بمجتمع التنمية وركب التطور.

كما انطلق البحث من عرض تجارب تعليمية دولية ناجحة وحاول الاستفادة منها.

أما د. صالح مشوش فقد خصص دراسته «**قراءة في محاولة الفاروقي لتأصيل المنهج الظاهراتي في مقارنة الأديان: إشكالية الموضوعية العلمية والخصوصية الدينية**» لعرض محاولة راجي الفاروقي في صياغة المنهجية العلمية لدراسة الدين ضمن التحولات المعاصرة في الدراسات الدينية، ودور الدين في حياة الإنسان المعاصر، في المجالات الثقافية، والتربوية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. كما عمل على التعريف بالمبادئ الأساسية لمنهجية الفاروقي في دراسة الدين وظواهره في العمران البشري اعتماداً على المنهج الظاهراتي.

أمَّا د. نورة بوحناش في دراستها الموسومة بـ «**ما بعد الأخلاق: الخلاصة الإبستيمولوجية والممارسة الأنطولوجية**»، فقد اعتبرت أن الأزمة الإنسانية الراهنة هي أزمة أخلاقية كونية؛ لذا تعرضت لمكانة الأخلاق بالنسبة إلى عقلانية العلم، فاعتبرت أن لمفهوم ما بعد الأخلاق وضعت إبستيمولوجيا شديدة الالتصاق بالوضع الوجودي، إذ تحولت الأخلاق من الصرامة المنطقية ذات السلطة الكلية على قرارات الفعل البشري إلى مجرد حسابات فردية ترتهن بالروح الفردية وتعبر عن مطلق الاختيارات الحرة، كما استنتجت أن حديث المابعديات تعبير عن فهم

حضاري أجراه الإنسان الحديث، لوضعه الأكسيولوجي، بعد أن حلت الفلسفة الفردية في قلب الفلسفة الغيرية التي يفترضها المجال الكوني للأخلاق، وبدت الأنا هي صاحبة التسيير للشأن الأخلاقي.

ونافش البحث الموسوم بـ «**نظريات العلاقات الدولية الغربية وتوصيف واقع المسلمين: الاستضعاف نموذجًا**» للدُّكتور مشاري حمد الرويح، مفهومَ الاستضعاف كمفهوم منهجي، أراد أن يكون حقلًا لتجسير الصلة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الشرعية، وهي فكرة تنخرط في صميم أهداف المجلة ورهاناتها.

أمَّا ملف العدد «**العلوم الدقيقة وعلوم الوحي**»، فقد جاء متنوعًا وخادمًا لموضوع العدد، فكان البحث الأول بعنوان: «**علم المنطق بين القول الإلهي والذكاء الإنساني: الغزالي مسؤولًا**» للدكتور عبد الكريم عنيات، وفيه ناقش فكرة تأصيل الآلة المنطقية في النص القرآني، الذي أبصر فيه الدكتور نوعًا من الصّفة النفسية التي تبحث عن الاعتراف السيكولوجي أكثر من الاعتراف الإبستيمولوجي. ومن منحى آخر؛ فإنَّ إسكان المنطق في النص القرآني قد كان له دور آخر، هو تخفيف الهجوم الفقهي على المنطق، بما أنَّ الأقيسة المنطقية هي الموازين القرآنية.

وتناول بحث الدكتور عبد الفتاح الزويني، الموسوم بـ «**علوم الوحي والعلوم الدقيقة: تجليات التوافق والتداخل**» لفتات ذكية، تتعلّق بأهمية التكامل الأصلي بين العلوم الدقيقة وعلوم الشرع، فالمفهوم الأصلي للشرع يتسع مدلوله إلى العلوم الشَّرعية. وأمام هذا؛ فإنَّ أهل العلم الدقيق من الأقوم لهم منهجيًا استكشاف هذا المدلول في الشرع، وبهذا نحن أمام تكامل أصلي بينهما.

كما تناول الملف القضية الكلامية، من خلال بحث حمل عنوان: «**الكلام بين قديمه وجديده مقاربة منهجية**» للدكتور علي محمود العمري، ملفتًا النّظر إلى أهمية التجديد في علم الكلام؛ ذلك أن علم الكلام في حركته كان يقوم على: إثبات العقائد، ونفي الشبه، ولما كانت ساحة الإثبات ونفي الشبه اليوم هي العلم والفيزياء المعاصرة؛ فإنَّ رهان علم الكلام الجديد هو التزوُّد بهذه العلوم بما يثبت العقائد ويدفع عنها الشبه؛ وإلَّا فهو مادة تاريخية لا يتعدى دورها القيمة التعليمية.

كما جاء البحث الموالي رصدًا لـ «**حركة الترجمة من التراث اليوناني في العصر العباسي**» للدكتور عبد الرحمن أحمد

سالم، متتبعًا المراحل التاريخية للترجمة التي تعد علامة على نمو الوعي المنهجي عند المسلمين، من خلال تكليف غير المسلمين بالترجمة، وهذا مؤشر على اعتراف بالتعددية في دائرة العلم والمعرفة، وأن الترجمة علامة على القوة في الحضارة تجعلها تنفتح على الثقافات المتباينة من غير أن تنجذب فيها.

والبحث الثاني الذي لامس القضية الكلامية أيضًا، هو «**البحث الطبيعي في علم الكلام: سؤال الأصالة وحدود العلاقة**» للدكتور ياسين السالمي، تناول فيه إمكانية انوجاد صلة بين الطبيعيات أو البحث الطبيعي وبين علم الكلام، مستخلصًا أن اهتمام الدرس الكلامي بالعلوم الطبيعية لم يكن لذات الموضوع، وإنما لأجل نقد الاتجاهات الفكرية المناهضة للعقيدة الدّينية، بمعنى تشغيل مقولات (الجوهر الفرد)، و(الجزء الذي لا يتجزأ)؛ لأجل الدفاع عن العقيدة في وجه من يفتقر إلى هذه المقولات.

واحتوى العدد على حوار مع الدكتور مسفر بن علي القحطاني، تناول طرائق الوصل بين علوم الوحي والعلوم الإنسانية، والتحديات الفكرية الراهنة في ظل الحاجة إلى عمران إنساني جديد.

وتضمن العدد تقريرًا علميًا حول مؤتمر: «**مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران**»، والذي جرت فعالياته في (١٨/ ١٩/ ٢٠/ نيسان (أبريل) ٢٠١٧م)، واشترك في تنظيمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع المعهد العالي للحضارة الإسلامية ووحدة بحث الدراسات القرآنية- جامعة الزيتونة، تونس.

وجاء ركن الترجمات حاملًا خمسة نصوص هي تواليًا: **الاضطرابات الدينية في بغداد في القرنين الرابع والخامس الهجريين**، ونص: **رحلة (بوركاردستراسبورج)**، ونص: **العنف السيادي ونطاق السياسة**، ونص: **كتاب الحيدة: الأهمية التاريخية لنص موضوع**، بالإضافة إلى نص آخر هو: **معرفة الإسلام: هنري كوربان وأعماله.**

وتضمن ركن القراءات مراجعةً نقدية قدمها د. الحسان شهيد لكتاب وائل حلاق (تاريخ النّظريات الفقهية في الإسلام). ومراجعة أخرى لكتاب (الأزهر والشيعة: التقريب الإسلامي في القرن العشرين)، قدمها الدكتور بشير موسى نافع.

هذا؛ ويجدر التنويه أن المجلة ما زالت تستقبل البحوث الموصوفة بالعلمية والتكاملية المعرفية، فيما هو موجود ضمن ملفات العدد.